نفس المرأة

لجورجي افندي حداد عربها للمقتبس بتصرف من مقالة لجان فينو في المجلة الباريزية

انصرفت افكار الباحثين الى درس طبائع المرأة ومميزاتها الجنسية وخلائقها الخاصة على اثر ما كان من نهوض المرأة لمباراة الرجل في ميدان الاقتصاد وتشوفها بعد ذلك الى مشاركته في الحقوق السياسية فتوفر على هذا البحث جماعة من العلماء الاعلام عنوا بتمحيصه وتجريده مما لصق به من خرافات الاقدمين واوهامهم جارين على اسلوب علمي لا يدع مجالاً للظن والشبهات العالقة بآراء الاقدمين والسادلة على الحقيقة ستاراً من الغلو ينهض بالمرأة الى مستوى الملائكة او يحطها الى دركات الجحيم ومن الغريب اننا لا نجد باحثاً تصدى للموضوع الا زعم انه بين حقيقة المرأة وكشف عن اسرار نفسها على ان معظمهم جهلوا طبائعها الاصلية وخواصها المميزة فجاءت ابحاثهم فاسدة المقدمات والنتائج ولم يفرق بعضهم بين صفاتها الخلقية و بين الصفات العارضة التي اكتسبتها في احوال خاصة

وربما اتفق لعلماء النفس ان رأوا المرأة في الضعف او الاحتيال او الرياء فزعموا ان هذه الصفات من طبائعها الخلقية وانتقلت هذه المزاعم الى الاخلاف في الاجيال المتوالية فهي لا تزال تستمسك او تعجب اليوم بطبائع في المرأة اثبت عليها سنة النشوء والارتقاء فبدلتها او محتها . ولقد مرت على المرأة عصور وهي بعيدة عن الحياة الفكرية والعملية تراد على الطاعة العمياء لوليها فكانت اشبه بالاطفال غير ان الزمان تغير والمرأة تبدلت وبقي معظم علماء النفس واقفين عند الاراء القديمة يحسبونها رقيقة غاية حياتها خدمة الرجل

تملصت المرأة من اسار الجمود وشاركت الرجل في الحياة العملية وتركت في زوايا القرون صفاتها القديمة وتخلقت باخلاق جديدة فلا تصح فيها اراء المغالين في اعتبارها ولا المغرقين في امتهانها

ولا بد للباحث ان يتساءل هل للمرأة صفات نفسية خاصة بها تميزها عن الرجل وما هي تلك الصفات الجنسية التي لا يؤثر فيها مركزها الاقتصادي والاجتماعي ؟

يقول علماء الحياة باختلافات جوهرية بين الخليتين اللتين تتولد الحياة من انضمامها وان شروط الحياة متوفرة في الخلية المذكر ذاما الانثوية فهي هادئة شديدة الاحتفاظ بقوتها الغضوية وهذه الصفات تبدو آثارها في الاحياء وكلما ارتقى الجنس البشري كانت الخواص الجنسية اوضح اثراً فتركيب المرأة وطبائعها تميل بها الى السكون والدعة والراحة بينما نرى

الرجل جلداً على مشاق الحياة يتجشم الاخطار ويخوض غمار الجهاد ويرى كل ما حوله بدفعه الى المناجزة والاقدام

واذا سلمنا بارا علماء الحياة والنفس اتضح لنا سبب تخلق المرأة باخلاقها الخاصة واشغالها في المجتمع مركزها الخاص فللرجل الحرب والجهاد والمغامرة والنشاط والحزم وللمرأة اللطف والصبر والهدوء الا انها تشتد في بعض الاحيان فتفوق الرجل صبراً ومضاء وقد يوقد الرجل نار الثورة فتسعى في اخمادها وتهدئة روعه ويحملها ميلها الى السكون النفسي على الاعتصام بحبل الدين وهي اقل اقداماً على الجرائم من الرجل لما تتطلبه من تضحية القوى الجسدية والعقلية ويزعم علماء النفس ان المرأة ضعيفة المدارك مما يحملها على الاستسلام لعواطفها فهي غريبة عن الحرب والعلم والفنون وسنرى فيما يلي فساد مزاعمهم في هذا الصدد

سار علماء النفس والحياة على اسلوب واحد في ابحاثهم فأدت بهم الى نتائج متشابهة فقالوا ان المرأة اليوم هي ذات المرأة في القرون السالفة و يتبين لك خطل آرائهم من عرضها على احوال الحياة الحقيقية واذا تتبعنا ارتقاء العالم الحيواني وضحت لنا المنافضة بين اراء الباحثين في المرأة و بين حالتها الحاضرة على اتم اشكالها

المرأة المحاربة — لنتقدم الى البحث في احدى صفات المرأة التي قالوا بها من الجبن وصغر النفس ونتخذ هذه الصفة اساساً لبحثنا فقد اجمعت اراؤهم على ان المرأة لا تصلح للقتال والذود عن الوطن فلما ارتفع صوت النساء المطالبات بالحقوق دافعها المنكرون عليها بقولهم انها لا تستطيع مشاركة الرجل في الحرب والدفاع عن حياض الوطن على اننا اذا انعمنا النظر وجدنا هذه الصفة عارضة لا جوهرية وليست هي من صفاتها الخلقية التي لا تتغير فنساء الحبش يقاتلن مع ازواجهن جنباً الى جنب راكبات على الجمال او الخيل ومتقلدات سلاح الرجال ولا ينقصن عنهم شجاعة واقداماً وصبراً على المشقات ويقول الرحالون ان النساء يتدربن على فنون القتال فينشأن شديدات القوى وقد اكسبتهن ممارسة الحروب بطشاً لا يتصف به سوى شجعان المقاتلة

ويقول تاسيت ان جيوش البريتونيين القدماء كانت تزحف الى القتال والنساء سيف طليعتها ويقول مومسن بمثل ذلك عند الايبريين فقد كانت نساؤهم يفتتحن الحصون ويقتلن زرافات في الهجوم

وأكد جماعة من السياح ان النساء الامازونيات القاطنات على ضفاف نهر الامازون

يشاركن الرجال في القتال و يعتذين بلحم البشر و يقص آخرون مثل ذلك عن نساء الموركيتس والكواي موراس

وذكر ارفن ان نساء الانتيل يتمرسن بالفنون الحربية حتى يضارعن الرجال ولقد قاسى كولمبس الامرين من بأس نساء الامازون الهنديات وفي اميركا الجنوبية يتناقلون اخباراً كثيرة عن وجود النساء المحاربات

وشاهد الرحالة ستانلي مقاتلة النساء في بلاط متزا ملك الاوغندا فعنده نساء من الامازون يتقلدن الحراب الطويلة وتزحف نساء الفواتو تو الافريقيات مع الرجال في الحرب

وفي الداهومي جيش من الامازونيات مؤلف من صنفين احدهما الصنف العامل وعدده ثلاثة الاف والآخر المحفظ يدعى في آبان الحاجة ويختص لنظامات حربية شديدة و يتعودن احتمال الجوع والعطش وغيرها من المشاق و يجبرن على مقاساة الآلام صابرات و يتميزن بالشجاعة والبأس فاذا اشار اليهن الملك اقتحمن الاخطار وخضن الغمرات وقد شاهد احد رؤساء المبشرين سنة ١٨٦١ مشهداً ملأه دهشة واعجاباً فقد امر الملك النساء الامازونيات ان يقتحمن حواجز علوها مترون وعرضها ستة امتار وكانت الحواجز من النباتات الشائكة يؤلم وخزها فتهشمت سوق المقاتلات العاريات غير انهن ثبتن اي ثبات فتقدمت الفرقة الاولى وما زالت تجاهد حتى اعيت فوقفن منهوكات يائسات ولكن الملك صاح بهن ونظر اليهن نظرة دامت فهن تباراً كهر بائياً فعاودن الهجوم بسالة نادرة حتى خلفن ما اردن

وعند هياج البولونيين سنة ١٨٦٣ تزيت نساؤهم بزي الرجال وابلين في المعارك بلاء حسناً فاصبحت شجاعتهن مضرب المثل وصارت باحاديثهن الركبان وتفردت منهن الآنسة بوستافو بتو باليأس والجلد حتى اصبح لها مجد حربي لا يقل عن مجد اعاظم الرجال

ان صيد الحيوانات الكاسرة ليس اقل خطراً من خوض المعارك ونساء التتر الصينيات يصحبن ازواجهن في صيدها ونساء الروس والبولونيين يشاركن بعولتهن في صيد الدببه والذئاب والخنازير البرية غير عابئات بما في ذلك من المهالك

ولا يسع الباحثين بعد ذلك الا ان يسلموا معنا باستطاعة النساء القتال ولا سيما في الحروب الحاضرة وقد اصبح معظم الاعتماد فيها على الحذر والتيقظ والحكمة فمن وسع المرأة ان تشارك الرجل في الدفاع الوطني ولا نقل عنه جلداً واقداماً لولا ان ذلك يعوقها عن واجباتها المنزلية وانجاز وظيفة الام

قابلية الانفعال في الجنسين — كتبت الوف من المجلدات في بسيكولوجية المرأة تراوحت بين الاغراق في تعظيم « الشهيدة الابدية » وامتهان « عدرة الرجل القديمة » ولم يلتفت مؤلفوها الى انهم رسموا خطوطاً لصورة المرأة في عصر او عصور سالفة واغفلوا وصف امرأة اليوم والغد فرماها بعضهم بكل شائنة وقال الآخر انها ادق احساساً وارق شعوراً من الرجل وممن ذهب هذا المذهب الفيلسوف اوغست كونت فقال « تؤثر المؤثرات الطبيعية في المرأة بسهولة وشدة » وقد برهن على ذلك نفر من الكتاب . وترى انفعالها واضحاً في جميع الظروف فانها تقطب جبينها وتغضب وتحتقر وبؤلمها الاضطراب وتنقاد لعواطفها فهي في ذلك اقرب الى الطفل منها الى الرجل وسرعة التأثر في المرأة تجعلها طوراً ارق وطوراً اقسى من الرجل ثم ان الفواعل يزول اثرها من نفسه لانه عرضة لمختلفاتها فالحزن يعقب السرور والبشر يتلو الاسى كما تتوالى السحب في السماء ولكن طبيعة المرأة الساكنة اذا لامستها الفواعل تركت فيها اثراً يصعب زواله فترى عواطف الحب والبغض والرحمة والقسوة ارسخ في المرأة مما هي الرجل

على اننا نرى الرجل في بعض اطواره لا يقل عن المرأة في الاستسلام للعواطف ويرجع ذلك الى احوال البيئة والاخلاق الشخصية لا الجنسية

الحب ريحان حياة الرجل غير انه حياة المرأة ذاتها ولكن الا تفعل العواطف في الرجل فعلها في المرأة ؟ قال لاكوردير في كتاب بعث به الى احدى صديقاته « يخطيء من يقول ان الرجل يعيش بالعقل والمرأة بالعواطف فالرجال يحيون ايضاً بالعواطف الا انها راقية تنزل لم يكن منزلة العقل »

و بعض علماء النفس ينكرون على المرأة هذه المزية و يعزون اليها نقصاً بينا في شواعرها كافة و يصفونها بتطرف يسيء بها الى قمة المجد او يهبط بها الى دركات الشنار فهي مفرطة في الحالين والانانية والغيرية على اشدهما عند المرأة لان فطرتها الثائرة تربي بها الى الغايتين المتنافضتين

وخالف هؤلاء نفر ادعوا انها ولعة بالاعتدال محمولة عليه بما لها من سكون الطبع فهي ثابتة في اعمالها وافكارها تقاوم الفواعل التي ربما اخرجتها عن بيئتها فقضائها الاولون ينكرون عليها حق الحكم لانها تطاوع في ذلك عواطفها وحماستها الخرقاء

و يوافقهم الآخرون على هذا الرأي مستندين في ذلك على مقدمات غيرها فهم يقولون ان اخلاد المرأة للسكون يبطل كل ارتقاء اجتماعي

تلك هي اراؤهم المختلفة باختلاف وجهة النظر فيشك ان هذه الخواص ليست جنسية وانما هي شخصية واذا عاش الرجل في بيئة تشبه بيئة المرأة لا يلبث ان يخلق بهذه الاخلاق لان قابلية التأثر لا حد لها وهذه الصفات انما هي نتيجة احوال المحيط

ذكر هربرت سبنسر ان المرأة تفوق الرجل قسوة في البلاد التي يمثل اهلوها بالاسرى وقبيلة الداكوتاس تدفع الشيخ الى النساء يتلذذن بتعذيبه ويقول ما كميم دي كاسب ان النساء اثناء ثورة الكومون فقن الرجال فظاعة وشراسة

ومع عاطفة القسوة يتلالاء الحنان الانثوي فقد عطفت نساء البرابرة على الرحالين واظهرن لهم ضروب اللطف والرقة واتفق على ذلك مشاهير الجوابين كستانلي ولفستون وغيرهما

والباحث المنصف يجد للنساء مواقف مشهودة في الاخطار وعوارف محمودة في تكهين ثورة الرجل فدخول بعضهن في صفوف الثوار لا نضينا بنات جنسهن ممن بعثن الكينة سيخ النفوس فحفظ لهن التاريخ صفحات مجيدة

المراة والديانة — رقة شعور المراة جعلتها شديدة في جميع العصور والشعوب وفيها سرع تلبية لدعاة المذاهب فيجد هؤلاء بين النساء مومنات مخلصات كان لهن في ثبات الديانة ونشرها تأثير شديد

خضوع المراة المستديم لسلطة الرجل سهل عليها الاعتقاد بعناية الهية غامضة فهي لا تزال تقاوم انواع المشاق في التماس مصدر الرحمة الازلي وينبوع السلام الابدي وادى بها ذلك الى الاعتقاد بتفوق كل من يسودها وكيف لا تعتقد بالله الذي وهي تتوقع منه المكافاة على ما تتجشمه من المصاعب في هذا العالم فهي مسوقة الى التدين لا عن ميل فقط بل عن حاجة وتربيتها الانكالية زادت بها اهتماماً بالايمان لانه يقول بالله قادر يحبها ويرعاها . وهي لا تشعر بخوف الله فقط بل تشعف بحبه وتبتهل اليه في النوازل الشداد فيخترق الظلمات المطبقة بها نور رجاء ينضر به عيشها وكلما قلت مطالبها في الحياة زادت استمساكا بحبل الدين وكثيراً ما تنتابها اضطرابات دينية تلهل صوابها

ولا يجوز لنا الاغضاء عن ان الرجل هو الذي اوجد في المراة تلك الفطرة وهيأها الى التدين فأجابته مذعنة شأنها في الخضوع لما تعتقد به العظمة والتفوق فهي تنلتف من انواء الاعاصير مبادي الدين وتستمذب سلطته لانه يمنحها غبطة دائمة ويمني آمالها بحياة مستقبلة تمحو جميع آلامها الحاضرة فلم يخطر لها قط ان ترغب عن ذلك الجمال الفتان والامل المتلألىء